المحتشدات و مراكز التعذيب
شهادات حية من منطقة صبرة (تلمسان)

أ. بختاوي قاسمي
جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

لم يدخر الاستعمار الفرنسي جهدا ولا وسيلة تمكنه من القضاء على الثورة وإخماد لهيبها إلا وجربها في الجزائر. فقد أدرك مع مرور الزمن أن قوة الثورة الجزائرية مستمدة من الدعم مختلف الأشكال الذي تتلقاه من الشعب الذي آمن بها، وبالتالي أمدها بكل ما يملك من غال ونفيس تجسيدا لمقولة الشهيد محمد العربي بن مهيدي "ألقوا بالثورة في الشارع فسيحتضنها الشعب ". ومن الإجراءات القمعية التي تجرع مرارتها الشعب الجزائري، تهجيره من قراه ومداشره، وتجميعه في معسكرات محروسة عرفت باسم المحتشدات تفتقر لأدنى شروط الحياة، بهدف خنق الثورة، إضافة إلى ممارسة التعذيب بطرق وحشية على كل مواطن سولت له نفسه معارضة المشروع الاستعماري في الجزائر.

1 – تعريف المحتشدات:

المحتشدات هي مستوطنات غير طبيعية، تضم وطنيين غير مدانين قضائيا. أقيمت في أماكن حددتها السلطات الاستعمارية. تحيط بها الأسلاك الشائكة. يقيم فيها جزائريون هجروا غصبا من أراضيهم. فرضت عليها حراسة مشددة، بهدف عزل الشعب عن الثورة، وبالتالي قطع كل أشكال الدعم عن المجاهدين للحيلولة دون قيامهم بمهاجمة المصالح والمنشآت الاستعمارية (مرتاض، ع. 2001: 76). وقد عرفت هذه

المحتشدات محليا باسم "السلك" نظرا للأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بها.

2 – المعاناة داخل المحتشدات:

لم تكن هذه التجمعات التي أقامها الاستعمار في مختلف أرجاء الجزائر سوى شكل من أشكال الضغط على الثوار، بعد أن تبين للقادة الفرنسيين وعلى رأسهم "شارل دي غول" (وصل شارل ديغول إلى سدة الحكم في فرنسا بموجب انقلاب 13 ماي 1958، وهو من أعلن عن الاعتراف باستقلال الجزائر إثر استفتاء تقرير المصير الذي جرى في 01 جويلية 1962)، أن القضاء على الثورة مرهون بمدى تشديد الخناق على منابعها. فبصبرة وضواحيها (صبرة مدينة صغيرة تقع في غرب ولاية تلمسان، تبعد عن مقر الولاية بـ 29كلم، عرفت خلال الفترة الإستعمارية باسم توران)، تم تهجير سكان المداشر والقرى وتجميعهم في المحتشدات التالية: محتشد صبرة، محتشد أهل الغافر، محتشد القنطرة الحمراء، محتشد برباطة، محتشد تيلفت، محتشد وادي الزيتون، محتشد تافنة ومحتشد بوحلو(بن أحمد، ر. مقابلة بتاريخ 2011/08/04 ، صبرة).

لقد كانت هذه المحتشدات عبارة عن سجون جماعية عانى من بداخلها كل أنواع البؤس والحرمان،حيث يصور لنا الأسقف "جاك بومون" الأوضاع المزرية لأطفال المحتشدات في كراسة دونها في أكتوبر 1959 بقوله: " رأيت أطفالا تتميز عظامهم تحت البشرة بوضوح. إنهم أطفال أنهكتهم الحمى والبرد، فلم يكتمل نموهم، ورافقهم الشحوب والهزال، وأكلتهم الأمراض المختلفة دون أن يجدوا قرصا من الكنين لإيقاف الحمى. لقد رأيتهم يرتجفون من الحمى وهم راقدون على الأرض

بدون غطاء. لقد زرت الكثير من المراكز التي لا يوجد بها غطاء واحد؛ وإذا وجد في بعض الأحيان، فهو غطاء واحد لثلاثة عشر شخصا، يتغطون به جميعا في خيمة واحدة " (أزغيدي، م. 2005: 203/202). ويضيف قائلا : " ... إن السل الذي كان قد بدأ يقل منذ عشر سنوات، عاد ينتشر بشكل مفزع بسبب قلة التغذية خاصة بين الأطفال ". هذا الواقع المر أكدته جريدة فرانس سوار الفرنسية في 1960/04/15 في مقال جاء فيه : " ... أما الآن، فهم في بؤس قاتل بالمعنى الحقيقي للكلمة. إن كثيرا منهم يموتون في الغالب وخاصة الأطفال. فالأطفال الذين ولدوا خلال العامين السابقين هنا، كان يموت منهم واحد من كل اثنين قبل أن يبلغ العام " (أزغيدي، م. 2005: 203).

يبدو أن هذا الإجراء الديغولي، كان له أثره البالغ على سكان المحتشدات، حيث ورد في مذكرة لوزارة الأخبار للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في مارس 1960، أن ثلاثة ملايين من أبناء الريف الجزائري قد تلاشوا منذ 1954؛ فمن كل ريفيين اثنين، نجد واحدا فقط لا يزال في أرضه، أما الثاني فهو إما أنه لقي حتفه، أو أنه هجر إلى مراكز التجمع. ويضيف علي بومنجل في إحدى شهاداته على فظاعة سياسة شارل دي غول بقوله : " ... وقد قاسى شعبنا أضعاف ما قاساه في السنوات الثلاثة التي سبقت حكم دي غول " (أزغيدي، م. 2005 : 203). ويذكر المجاهد بن أحمد رشيد المدعو " الطيب " في هذا الصدد، أن امرأة مسنة تدعى " مريم الحمراء "، شوهدت و هي تخرج عارية تماما من بوابة محتشد وادي الزيتون، حيث ذهل كل من رآها؛ فقد أرادت بسلوكها هذا أن تعبر عن احتجاجها على التصرفات المشينة التي كان

يقوم بها" الحركى " (مرتاض،ع. 2001: 44/43) والمتمثلة في ملامسة الأماكن الحساسة من أجساد النساء بحجة التفتيش (بن أحمد، ر. مقابلة بتاريخ 04/08/ 2011).

أما الفتاة آنذاك "مزوار رحمة"، وهي عجوز اليوم، فتتذكر تلك الليالي المروعة التي عاشتها في محتشد بوحلو (بوحلو هي بلدية تابعة حاليا لدائرة صبرة، وتبعد عن مقرها بـ07كلم) عندما كان عساكر الاحتلال يباغتونهم ليلا بدعوى البحث عن الثوار المحتمل تسللهم إلى المحتشد، فيعيثون فسادا بانتهاكهم للحرمات وإتلافهم للأمتعة وترويعهم للأطفال دون شفقة ولا رحمة (مزوار، ر. مقابلة بتاريخ 2011/08/19، تمكسالت) (تمكسالت هي إحدى القرى الواقعة شرق بلدية بوحلو، تبعد عنها بـ03كلم).

لقد كانت الإقامة في المحتشد عبارة عن جحيم؛ فبالإضافة إلى غياب كل شروط الحياة الكريمة، لم تكن المساكن سوى خيم، سرعان ما أتلفتها رياح خريف 1958، وتركت أصحابها في العراء، مما اضطرهم إلى جلب الأخشاب والديس لبناء أكواخ لهم. ولم تكن عملية الخروج من المحتشد أو العودة إليه بالأمر السهل؛ إذ يتم التفتيش عند الدخول والخروج. كما كان مفروضا على العناصر المصنفة بالخطرة من طرف المستعمر وأعوانه، أن تؤكد حضورها اليومي من خلال التوقيع في بطاقة أعدت لهذا الغرض. ومن مظاهر تشديد الرقابة على سكان المحتشدات، تعيين السلطات الاستعمارية للوجهة اليومية التي ينبغي أن يتوجه إليها الرعاة بمواشيهم، حتى يتسنى لها مراقبتهم ضمانا لعدم اتصالهم بالثوار (بن أحمد، ر. مقابلة بتاريخ 2011/08/04، صبرة).

سياسة التجهيل كانت حاضرة داخل المحتشدات، حيث لم يكن بإمكان الأطفال التعلم في غياب المرافق الخاصة بذلك. غير أن تنظيمات جبهة التحرير الوطني السرية، واجهت ذلك بتكليفها للمثقفين الوطنيين المتواجدين هناك بتعليم الناس القراءة والكتابة (Kessel , P/ Giovanni, P . 1963,76

3 – اختراق الثورة للمحتشدات :

على عكس ما أراده الفرنسيون، لعبت المحتشدات دورا وطنيا هاما، حيث كان المثقفون الوطنيون يسهرون على تعليم الأميين بداخلها، ويبثون بينهم الوعي بعدالة وشرعية قضيتهم، وبذلك استمر دعمهم للثورة؛ إذ ظلت الاشتراكات (مرتاض، ع. 2001: 15/14) تجمع بانتظام، وبقي التواصل مستمرا بين الشعب والثوار (بن طاهر،ي. مقابلة بتاريخ 2011/09/10، تمكسالت). كما كانت المساعدات المالية التي خصصتها جبهة التحرير الوطني لعائلات الثوار، تصل إلى أصحابها بانتظام. أما تموين سكان المحتشدات للمجاهدين بالخبز، فكان يتم بطرق شتى، منها تثبيت الخبز على بطون الأغنام وفيرة الصوف، لتمريره على بوابات المراقبة بسلام، أو إخفاؤه داخل فضلات المواشي، عند إخراجها من المحتشد على الدواب (مزوار،ع. مقابلة بتاريخ 2011/08/30، بوحلو). ونشير هنا إلى الدور الذي لعبته المرأة الجزائرية في تأسيس الخلايا السياسية داخل هذه المعتقلات، مستغلة قلة الرقابة عليها مقارنة بما كان يعانيه الرجل (أزغيدي، م. 2005: 204). وتمكنت أيضا من ربط الاتصال بجيش التحرير الوطني المرابط في الجبال، كلما سمح لها بالخروج من المحتشد لجلب الحطب لاستعماله كوقود لطهي

الطعام، أو لبيعه لتوفير قوت العيال. كما استطاعت النسوة اللواتي سخرن لغسل ملابس الجنود الفرنسيين من الاستيلاء على بعض هذه الملابس والمؤونة والذخيرة، و تزويد الثوار بها عندما تتاح لها الفرصة؛ إضافةإلى مساعدتهن للشبان على الهروب قصد الالتحاق بجيش التحرير الوطني (جنان،ف. مقابلة بتاريخ 2011/07/18، صبرة).

4 – مراكز التعذيب :

بهدف ترهيب الشعب الجزائري ودفعه إلى التخلي عن ثورته، عمدت السلطات الاستعمارية إلى إنشاء مراكز متخصصة في التعذيب، تستعمل وسائل وطرق وحشية. وقد أنشئت هذه المراكز خصوصا بالمناطق المتوترة المعروفة بمناهضتها للاستعمار. ومن نماذجها بمنطقة صبرة، مقر الدرك "المكتب الثاني" الذي تحول بعد الاستقلال إلى مقر للدرك الوطني، ثم مقر للحرس البلدي حاليا؛ ودار روستان التي تحولت إلى مسكن يملكه حاليا بوغرارة عبد القادر بحي سوناطراك. وعلى العموم، كان التعذيب أثناء الاستنطاق يتم بمختلف المؤسسات العسكرية الفرنسية كثكنات الجيش ومقرات الشرطة والدرك وحتى داخل المحتشدات. وقد جهزت هذه المراكز بمختلف وسائل التعذيب، من حبال، وسلاسل، وحفر عميقة، ومولدات للتيار الكهربائي، وغرف ضيقة ومظلمة، وأدوات حادة، وقضبان حديدية، ومشانق (بن أحمد، ر. مقابلة بتاريخ 2011 /08/04، صبرة).

5 – أساليب و تقنيات التعذيب :

لقد تفنن جلادو الاحتلال الفرنسي في تعذيب كل جزائري جهر بعدائه للاستعمار أو اشتبه أنه كذلك؛ حيث استعملوا وسائل وأساليب

شتى، تهدف إلى انتزاع اعترافات أو معلومات من المعتقلين حول الثورة والثوار. يروي لنا أحد الثوار ما عاناه من عذاب بعد إلقاء القبض عليه إثر اشتباك جمعه ورفاقه مع عساكر الاحتلال قائلا: "... تم نقلي إلى مقر المكتب الثاني بعين تموشنت بعد إلقاء القبض علي بالمنطقة، فعذبت هناك بكل وحشية، حيث كان الجلادون يغطسون رأسي داخل الماء الممزوج بالصابون حتى أكاد أختنق، ويعاودون الكرة لمرات عديدة. كما قاموا بتبليل جسدي بالماء قبل وصل أماكن حساسة منه بالتيار الكهربائي. ودامت العملية حوالي شهرا؛ ليتم نقلي بعدها إلى صبرة أين كنت مطلوبا من طرف المكتب الثاني، بعد علمه بالتحاقي بصفوف الثوار سنة 1955. عذبت هناك بقساوة أيضا، قبل إعادتي إلى عين تموشنت، ثم وهران أين تمت محاكمتي، وحكم علي بخمس سنوات سجنا، قضيتها بالسجن العسكري بشاطوناف (قاسمي، م. مقابلة بتاريخ 2011/08/14، تمكسالت).

ومن الأساليب الأخرى التي اعتمدتها فرنسا في تعذيب الجزائريين حسب شهادة أحد رجال الاتصال (مرتاض،ع. 2001، 10) خلال الثورة، ما يلي :

- استعمال السوط والضرب بقوة وقساوة وعشوائية لكل أنحاء الجسم من طرف أكثر من جلاد ولمدة طويلة .
- تعليق الشخص المعتقل من رجليه لعدة أيام .
- نزع الأظافر بالملاقط .
- وضع الشخص المعتقل عاريا على طاولة مسمارية .

- استخدام الكلاب البوليسية المدربة على تمزيق أجساد البشر وأكل لحومها .

- ارغام الشخص المعتقل على شرب المياه الملوثة والقذرة، ثم القفز على جسده حتى تخرج المياه من عدة مخارج .

- ارغام الشخص المعتقل على الجلوس على فوهات قارورات زجاجية (ليبدري، م. مقابلة بتاريخ 2011/08/28، صبرة).

ولم يقتصر التعذيب على الجانب الجسدي فقط، بل وجد أيضا التعذيب النفسي الذي اتخذ بدوره أساليب مختلفة، كأن يجرد الشخص المعتقل من ثيابه أمام زوجته أو أبنائه أو والديه؛ أو يمارس الجنس على محارمه على مرأى منه؛ أو يتخذ كوسادة لزوجته أثناء اغتصابها، ناهيك عن رمي جثامين الشهداء في وسط المحتشد ترهيبا لساكنيه (بن أحمد، ر. مقابلة بتاريخ 2011/08/04، صبرة).

يبدو أن كثيرا من الثوار المعتقلين، استطاعوا تحمل أساليب التعذيب الجسدي الوحشي؛ لكن البعض من هؤلاء لم يتمكن من الصمود أمام أشكال التعذيب النفسي، الذي كان يفضي في الكثير من الأحيان إلى إصابة ضحاياه بالجنون (بن مصطفى،ع. مقابلة بتاريخ 2011/09/01، صبرة).

وأمام صمود المعتقلين خلال عمليات الاستنطاق، وعجز جلاديهم عن انتزاع أية معلومات أو اعترافات منهم، كان مصير الكثير منهم الإعدام بكل وحشية ودون محاكمة في كثير من الأحيان. وقد تعددت طرق الإعدام أيضا، ومنها :

- الموت الرحيم : إلقاء الأسرى في الآبار العميقة وهم أحياء.

- الإعدام الفني : وضع عدة قناطير من الشعير فوق جسد الأسير حتى يتفتق.
- الإعدام الاستعراضي : إعدام الأسير في وسط التجمعات أمام أهله .
- الإعدام الرياضي : إلقاء الأسرى من المروحيات جوا فوق قراهم وهم أحياء .
- الإعدام بالتقسيط : قطع بعض الأجزاء من جسد الأسير رويدا رويدا حتى الموت.
- الإعدام البطيء : غلق المخابئ بالإسمنت المسلح والثوار بداخلها .
- الإعدام المفخخ : تفخيخ الأسرى وتفجيرهم عن بعد .
- الإعدام السريع : دفع الأسير إلى الهروب، ثم إطلاق النار عليه من خلفه.
- الإعدام بواسطة : بالسم، أو الشنق، أو بالصعقة الكهربائية .
- الإعدام بالخنق : وضع رأس الأسير داخل الماء حتى تنقطع أنفاسه.
- الإعدام المضغوط : التواء أفعى على جسد الأسير حتى تكسر عظامه (مندوبية المجاهدين لدائرة صبرة)

خاتمة :

لقد كشفت الحياة القاسية داخل المحتشدات، وأساليب التعذيب المختلفة التي مارستها فرنسا على الشعب الجزائري، عن مدى وحشية الاستعمار الفرنسي وفظاعة جرائمه. كما أكدت قوة الثورة وتفوقها

بفضل صمود الثوار وإصرارهم على استرجاع حريتهم المغتصبة. وما كان للثورة التحريرية الجزائرية أن تدوم طويلا، لولا الخونة الذين وقعوا ضحية إغراءات الاحتلال وأداروا ظهورهم لوطنهم، وأمدوا الاستعمار بمعلومات مكنته من وضع استراتيجيات جديدة، أثرت إلى حد ما على مسار الثورة. إن انتصار الثورة الجزائرية لدليل على عجز الاستعمار وفشل مختلف مخططاته، أمام شعب مظلوم آمن بعدالة قضيته، فاتخذ الجهاد سبيلا لاستعادة كرامته.

المصادر و المراجع :

المصادر:

- رحمة مزوار :ولدت في 1943/07/04 . شهدت المعاناة في المحتشد ، شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بتمكسالت بتاريخ 2011/08/19 .
- رشيد بن أحمد: ولد بتاريخ 1943/05/13. سجن عدة مرات خلال سنوات 1956 – 1958 – 1959 . اشتغل كمحافظ سياسي بين سنتي 1960 و 1962 . شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بصبرة بتاريخ 2011/08/04 .
- عبد القادر بن مصطفى : ولد بتاريخ 1933/10/26 . التحق بصفوف الثوار سنة 1955 . أسر إثر إصابة بليغة في رجله أثناء اشتباك مع العدو في معركة تاينت في جوان 1956 . حكم عليه بعشر سنوات سجنا . شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بصبرة بتاريخ 2011/09/01 .
- عبد القادر مزوار ، ولد سنة 1949. عاش رفقة أمه و إخوته داخل محتشد بوحلو، إلى غاية إطلاق سراح والده الذي كان معتقلا في سجون الاستعمار، وذلك بعد وقف إطلاق النار . شهادة حية مسجلة خلال مقابلة ببوحلو بتاريخ 2011/08/30 .

- فطومة جنان : ولدت بتاريخ 1920. كانت امرأة اتصال . عاشت في محتشد بوحلو، وتكفلت بإعالة أبنائها الستة طيلة غياب زوجها الذي التحق بصفوف الثوار. شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بصبرة بتاريخ 2011/07/18 .

- محمد ليبدري : يعرف محليا باسم الملك . ولد بتاريخ 1934/12/28. كان رجل اتصال . اعتقل سنة 1957 . خضع للعذاب الشديد، قبل أن يقبع في السجن إلى غاية الاستقلال. شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بصبرة بتاريخ 2011/08/28 .

- ميلود قاسمي : ولد بتاريخ 1936/03/07 . عمل بخلايا جبهة التحرير الوطني قبل أن يلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني سنة 1955. اعتقل أواخر 1956 وحكم عليه بخمس سنوات سجنا. شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بتمكسالت بتاريخ 2011/08/14 .

- يحي بن طاهر: ولد بتاريخ 1930/03/01. اشتغل كمسبل وعاش داخل المحتشد، شهادة حية مسجلة خلال مقابلة بتمكسالت بتاريخ 2011/09/10 .

المراجع:

- عبد المالك مرتاض. 2001، دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية 1954 – 1962 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة نوفمبر 1954 ، الجزائر، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية.

- محمد لحسن أزغيدي .2005، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الجزائرية 1956 – 1962 ، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

- مندوبية المجاهدين لدائرة صبرة . اصطلاحات الإعدامات الفرنسية في الجزائر 1954 – 1962 (وثيقة) .

- Kessel PATRICK/ Giovanni Pirelli. (1963). Le peuple Algérien et La Guerre (lettres et témoignages), 1954 – 1962. Paris: Maspero.